Annals of letters and languages حوليات الآداب واللغات
ISSN 2335-1969 E.ISSN 506X - 2602
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/312
مجلة علمية دولية محكمة . كلية الآداب واللغات . جامعة محمد بوضياف .المسيلة الجزائر
المجلد 10 عدد : 02 رقم21. نوفمبر 2022 صفحة من : 47 إلى 66

الفصحى واللهجات العامية تكاملٌ أم تصادمٌ

Standard and colloquial dialects, integration or collision

د. محمد خالد الرهاوي
rahawi@qu.edu.qa
قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم– جامعة قطر ص.ب 2713 الدوحة – قطر

ملخص البحث:

يتناول البحثُ العلاقة بين اللغة الفصحى واللهجات العامية، فيبين هل هي علاقة تكامل أم تصادم، مهد للبحث بالحديث على نحو مقتضب عن الازدواجية اللغوية منذ القديم حتى يومنا هذا، ثم بين أوجه العلاقة بين الفصحى واللهجات من حيث الأصل والاستعمال والتكامل والتصادم حديثا وقديما، وأجاب عن اعتراضات التكامل بينهما، ثم بين متى تشكل العاميات خطرا على الفصحى، وختم بأبرز النتائج التي توصل إليها.

معلومات المقال

تاريخ الاستلام:2022/08/07
تاريخ القبول : 2022/08/11
تاريخ النشر : 2022/11/01

الكلمات المفتاحية:

الفصحى، اللهجات، التكامل، التصادم.

The research deals with the relationship between the standard language and the colloquial dialects, showing whether it is a relationship of integration or a collision. It introduces briefly the linguistic duplication from ancient times to the present day.In addition, it discusses the relation between standard language and colloquial dialects in terms of origins and uses. What's more, it shows the relationship between the integration and collision in the past and nowadays. Further more, it answered about The objections of the integration between them. Also, it explained when the slang language will be a threat to the standard language. Finally, it concluded with the most prominent results he reached.

Keywords:
standard language, dialects, integration, collision.

المؤلف المرسل : د. محمد خالد الرهاوي

1. مقدمة:

إن الازدواجية اللغوية المتمثلة بوجود لغة أدبية فصيحة ولهجات متعددة لها ليس خاصا بزمن دون زمن، ولا بلغة دون أخرى، بل هو واقع لغوي عام في كل اللغات وعلى مدار الأزمنة، منذ القديم إلى يومنا هذا، وإذا كانت هذه الازدواجية قد وجدت في أرقى عصور الفصاحة والبيان العربي فوجودها في غيرها أمر طبيعي لا مناص منه، وإذا كان القرآن الكريم وهو آية البيان المعجز قد نزل بلغة موحدة وبقراءات متعددة تتوافق ولهجات العرب، فإن هذه الازدواجية والتكامل في غيره أمر لا مفر منه أيضا، وإذا كان النبيُّ ﷺ وهو أفصح من نطق بالضاد قد تكلم ببعض اللهجات العربية مع قبائل عربية ومع أهل بيته فما ظنك بغيره من أهل عصره وما تلاه إلى عصرنا هذا؟

إننا إذا ما نحَّينا الدخيل –وهو قليل في اللهجات المحلية قياسا على ما دخل الفصحى قديما وحديثا ومتفاوت من مجتمع إلى آخر– فإن اللهجات المحلية العربية المعاصرة ليست وليدة اليوم، ولا من ابتكار أهل هذا العصر، بل هي في معظمها لهجات ضاربة في القدم ومتوارثة عن الآباء والأجداد، وامتلكت من القوة والخصائص ما مكنها من البقاء والاستمرار حية على ألسن الناس منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا، عاشت إلى جانب الفصحى خلال هذه القرون الممتدة في أعماق التاريخ، ولم تشكل خطرا عليها ولا تهديدا لها، بل ظلتا متعايشتين متناغمتين متكاملتين يؤدي كلٌّ منهما وظائف مهمة، وسأعرض على نحوٍ موجز وجودهما منذ القديم إلى يومنا هذا لعل ذلك يغير من الصورة النمطية التي ارتسمت في أذهان كثيرين، ويحد قليلا من جلد الذات وما يتركه من أثر سلبي في أنفس النشء، ويعيد بعض الثقة لما نتكلم، وأن حالنا في الأداء اللغوي ليس بأسوأ حالا مما عند أجدادنا في هذه البلاد الممتدة من الخليج إلى المحيط.

إشكالية البحث: تصور بعض الأبحاث والندوات ووسائل الإعلامِ العلاقةَ بين الفصحى واللهجات العامية على أنها علاقة تصادم، وأن اللهجات خطر بالغ يهدد الفصحى.

منهج البحث: فرضت طبيعة البحث أن يكون المنهج المتبع فيه هو المنهج الوصفي، لوصف العلاقة بين الفصحى واللهجات وتحليلها واستخلاص النتائج منها.

2. الفصحى واللهجات لمحة تاريخية موجزة

رسمت المسلسلات التاريخية وبعض القنوات الفضائية صورة مثالية للأداء اللغوي العربي قديما فلا تكاد تسمع من صغير أو كبير إلا لغة فصحى معربة مثالية، الأمر الذي زرع في نفوس كثيرين شعورا وإحساسا بالبعد كليا عن لغتنا، وربما تشكلت قناعات لدى بعض الناس أن ما نتكلمه اليوم صار لغة أخرى رديئة لا علاقة لها بالعربية، مع أن واقع الاستعمال اللغوي آنذاك ليس كذلك، فقد كانت العربية قبل الإسلام لهجات متعددة لقبائل كثيرة، وكانت تلك اللهجات متباعدة متنافرة في بعض أوجه استعمالاتها، وهي أشبه بحالنا اليومَ، على أنَّ

هذا التنافر والتباعد لا يحول دون التواصل فيما بينها، وإن غمضت مفردات أو تراكيب على بعض أبنائها أحيانا، ثم كثر المشترك بينها نتيجة الاختلاط بين أبنائها، وذهب كثير من العلماء والباحثين إلى أن قريشَ قد انتقت من لهجات القبائل أعذبها وأحسنها، فكانت لغتها لغة مثالية موحدة تنشد بها الأشعار في الأسواق الأدبية، واعتمدتها بقية القبائل لغة أدبية دون أن تتخلى تلك القبائل عن لهجاتها، بل ظلت هي المستعملة داخلها وفيما بينها. يقول د. صبحي الصالح: "من المؤكد أن عامة العرب لم يكونوا إذا عادوا إلى أقاليمهم يتحدثون بتلك اللغة المثالية الموحدة، وإنما يعبرون بلهجاتهم الخاصة، وتظهر على تعابيرهم صفاتُ لهجاتهم وخصائصُ ألحانهم"[1].

وفي القرن الأول الهجري الذي بلغت فيه اللغة الأدبية المثالية أوج نضجها بعد نزول القرآن الكريم وبفضله، بدأ اللحن يظهر في الجزيرة العربية وبلدان الفتوحات نتيجة لأسباب كثيرة لعل أبرزها الامتزاج الثقافي بين العرب والشعوب الأخرى، وذلك منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، ومع أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين موحّد للعرب والمسلمين إلا أنه لم يلغِ اللهجات العربية، بل راعاها، فكان أن أنزل على سبعة أحرف تيسيرا على أولئك الذين لم تطاوعهم ألسنتهم على التخلي عن لهجاتهم كالشيخ الكبير والأمي والعجوز وغيرهم، وقراءاتُه المتواترة إلى يومنا هذا عشر قراءات بأكثر من عشرين راوٍ، فضلا عن القراءات الشاذة التي فقدت شرطا من شروط التواتر، وجميعها المتواترة والشاذة حملت كثيرا من لهجات العرب دون أن تلغيها، يقول د. إبراهيم السامرائي: "وما استطاعت لغة القرآن والحديث أن تأتي على اللهجات الدارجة المحلية، أو قل على العربية المستعملة السهلة التي تتخفف من قيد الضوابط الثقيل، ومن هنا فالعربية شفيعة التعبير منذ أن كانت؛ ذلك أن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ملتزمة بضوابط الإعراب، ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم بعناء هذه الضوابط، وربما تعدى الأمر مسألة الإعراب إلى الألفاظ نفسها"[2].

وفي العصر الأموي استمرت تلك اللهجات، وشاع اللحن، وأخباره كثيرة جدا، حتى قال الأصمعي: "أربعة لم يلحنوا في جدّ ولا هزل: عبد الملك والحجاج والشعبي وابن القرية"[3]، إلى جانب العجمة التي كانت فاشية آنذاك في الشام والعراق ومصر، ولم يبدأ التعريب في الشام إلا على عهد عبد الملك عام (81 هـ) وفي مصر عام (87 هـ)، وفي العراق على يد الحجاج عامل عبد الملك عليها، وكانت الرومية والفارسية والقبطية لغات الكتابة الرسمية في دواوين الدولة ونقدها، فضلا عن شيوع ألفاظها في تلك المناطق وغلبتها –ربما– لأن التعريب لا يمكن أن يتم خلال هذه الفترة الوجيزة جدا، ومن البدهي أن تظل الألفاظ الفارسية شائعة مستعملة التي كانت عقودا لغة رسمية فيها. ويؤيد ذلك ما ذكره ابن خلدون بقوله: "أما إفريقية والمغرب فخالط العرب فيها البرابرة من العجم... فغلبت العجمة على اللسان العربي الذي كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة، والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه، فهي عن اللسان الأول أبعد. وكذا المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الأَكَرَةِ والفلاحين والسبي الذي اتخذوهم خَوَلاً ودَاياتٍ وأظآراً ومراضعَ، ففسدت لغتهم

بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى. وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالقة والإفرنجة، وصار أهل الأمصار كلّهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر، ويخالف أيضا بعضها بعضا، وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم"[4].

وفي الأندلس كذلك وجدنا مستويات عدة للأداء اللغوي، فالفصحى لغة الشعر والخطابة والدواوين، لكن لغة الحياة اليومية خليط من لغات ولهجات متعددة نتيجة تعدد الأصول لسكان الأندلس آنذاك من عرب وبربر ويهود وإفرنج، ومن مناطق مختلفة لم تستطع ألسنة أبنائها الانسلاخ من لهجاتها رغم تغير الأماكن، يقول ابن حزم (456 هـ): "الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر لا لغة حمير لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي، ومن الخراساني إذا رام نغمتهما. ونحن نجد من إذا سمع لغة فحص البلوط، وهي على مسافة ليلة واحدة من قرطبة، كاد أن يقول: إنها غير لغة أهل قرطبة. وهكذا في كثير من البلاد، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبدلا لا يخفى على من تأمله. ونحن نجد العامة قد بدّلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ولا فرق، فنجدهم يقولون في العنب: العينب، وفي السوط: أسطوط، وفي ثلاثة دنانير: "ثلثدا". فإذا تعرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال "السجرة"، وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاء فيقول (مهمد)، فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان، واختلاف البلدان ومجاورة الأمم، وأنها لغة واحدة في الأصل"[5]. ولم يقف الأمر عند لغة الحياة اليومية بل تعداها إلى الأدب فدخل الموشحات والطرائف الأدبية وبعض الأشعار وغير ذلك، وواجه إنكارا في البداية ثم لقي القبول والاستحسان لاحقا.

وفي العصر العباسي ازدادت العجمة واللحن ولا سيما في أواخر الدولة، وأطلق العلماء على أدبائه وشعرائه اسم المولدين، ولم يحتجوا بكلام أحد منهم؛ لأن عصر الاحتجاج عندهم قد انتهى (150 هـ)؛ لأن فساد الألسن قد عمَّ، واللحن شاع وفشا في كلام الأدباء فضلا عن كلام عامة الناس اليومي، ولم يقتصر اللحن على المدن، بل أصاب أهل البادية أيضا حتى إننا وجدنا ابن جني (392 هـ) يقول: "إنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا، وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه، لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه، وينال ويغضُّ منه"[6].

ثم في عصور الدول المتتابعة والدولة العثمانية زاد الطين بلة حتى وجدنا ابن منظور (711 هـ) ينهض للتخفيف من ذلك بتأليف معجمه العظيم "لسان العرب"، يقول: "وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسن والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يُعدّ لحنا مردودا، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا، وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية وتفاصحوا في غير العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمنٍ، أهله بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون"[7].

وكذلك شكا ابن خلدون (808 هـ) من فساد الألسن في عصره حتى بدت العربية كأنها لغة أخرى، يقول: "اعلم أن ملكة اللسان المضريّ لهذا العهد قد ذهبت وفسدت، ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها"[8]. ويبين ابن خلدون وجود لغة مشتركة ولهجات متعددة، واختلاف لغات المشرق العربي عن المغرب والأندلس –كما هو الحال الآن– بقوله: "واعلم أن عُرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها، بعيدةٌ عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد، وهي عن لغة مضر أبعد، فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر، يشهد له ما فيها من التغاير الذي يُعدُّ عند أهل صناعة النحو لحنا، وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم؛ فلغة أهل المشرق مباينةٌ بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما، وكلٌّ منهم متوصّلٌ بلغته إلى تأدية مقصودة عما في نفسه ... وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم، كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد. وأمَّا أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل فلأنَّ البعدَ عن اللِّسان إنما هو بمخالطة العجم ... واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق"[9]. بل تجاوز الأمر اللهجات إلى غلبة العجمة على العربية.

كما ظلت مستعملة في العصور اللاحقة له حتى في عصرنا الحالي، وظن بعض الناس أنهم يتكلمون غير العربية، ومع ذلك فإنني أميل إلى القول: إن اللهجات منذ القديم إلى يومنا هذا تؤدي دورا وظيفيا مهما لا يمكن أن تؤديه الفصحى المثالية، كما لا يمكن للهجات أن تؤدي ما تؤديه الفصحى، ويتبين لنا التكامل بينهما من زوايا عدة، منها:

3. المطلب الأول: الفصحى واللهجات من حيث الأصل والاستعمال

إنَّ العلاقة بين الفصحى واللهجات من حيث الأصل هي علاقة العام بالخاصّ، فاللهجة جزء من اللغة التي تضم لهجات كثيرة، لكل واحدة منها خصائصها وميزاتها ومجتمعها الذي يتحدث بها وتعبر عنه دون أن تخرج عن اللغة الأم الذي تنتمي هي ولهجات أخرى كثيرة إليه، كما أن مجتمع هذه اللهجة العربية الواحدة جزء من مجتمع دولته، ودولته جزء من المجتمع العربي الكبير، وقد يتعذر التواصل والتفاهم أحيانا حسب درجة البعد والقرب بين تلك اللهجات، قديما وحديثا كما في حكاية الملك الحميري ومن ذلك قول الملك الحميري لزرارة بن عدس: ثِبْ. فقال: ما كان لي أن أعصي أوامر الملك، فقفز فمات. فتساءل الملك مستغربا من فعله، فأخبروه أن "ثب" في لغة تميم معناها "اقفز. فقال: من دخل ظفار حمَّر"[10]. وكذلك طلب خالد بن الوليد رضي الله عنه في حرب الردة مناديا أن يدفئوا الأسرى، فما كان من ضرار بن الأزور إلا أن قتلهم؛ لأن "أدفئوا الرجل" في لغة كنانة يعني اقتلوه[11]. وكذلك حادثة سقوط السكين من يد رسول الله؛ روي أن أبا هريرة رضي الله عنه لما قدم من دوس عام خيبر لقي النبي صلى الله عليه وسلم، وقد وقعت من يده الشريفة سكينٌ، فقال له: ناولني السكين. فالتفت أبو هريرة يَمنةً ويَسرةً، ولم يفهم المراد من اللفظ، فكرر له الرسول القول ثانية وثالثة، وهو يكر ما بدأه أولا من الالتفات ثم

قال: آلمدية تريد؟ وأشار إليها، فقال: نعم. قال: أو تسمى عندكم سكينا؟ ثم قال: والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ[12]. وغير ذلك كثير، كما هو الحال الآن في المجتمعات العربية ربما يتعذر التواصل أحيانا، أو يصعب على العربي المشرقي فهم بعض كلمات العربي المغربي أو العكس. لكن هذه المجتمعات كلها يمكنها التواصل والتفاهم إذا ما سمعت خطابا رسميا أو تقريريا إخباريا على قناة الجزيرة أو غيرها من القنوات التي تلتزم الفصحى، إذن ثمة لغة كبرى أدبية موحدة مشتركة للمجتمع العربي الكبير، تجمع لهجات محلية عدة، وتعد اللغة الرسمية في الأدب والإعلام والعلوم والمراسلات والملتقيات الثقافية وتدوين العلوم والخطابات وغيرها.

أما العلاقة بين الفصحى واللهجات من حيث الاستعمال فهي علاقة الخاص بالعام، فاللهجة هي العامة في الاستعمال، والفصحى خاصة بالخطابات الرسمية والفنون الأدبية والتدوين، ولا شك أن اللهجة أعم استعمالا من الفصحى كما أن النثر لغة العامة والأدب لغة الخاصة؛ لأن اللهجات تعبر عن شؤون الحياة اليومية العادية والأعمال والحاجات والأغراض والطرف والنوادر والمجالس والأدب المحلي في كل بيئة، وهذه كلها أكثر بكثير من الخطابات الرسمية والأدب بأشكاله وأنواعه المختلفة.

والأصل في العلاقة بين العام والخاص أو الخاص والعام هو التكامل في اللغات وشؤون الحياة الإنسانية كلها، وإن اصطدما أحيانا لكنه ليس بأصل، والصدام يكون إذا اقتحم أحدهما ميدان الآخر وزاحمه فيه.

وجدير بالذكر أن المقاييس قد اختلفت تماما في عصرنا هذا عن الماضي، نتيجة لتحديد العلماء للإطار الزماني والمكاني للاحتجاج، فقد كان الشيوع عند العرب والعلماء مقياسا للفصاحة واعتمادها ووصفها اللغة بالكثرة والاطّراد وبأنها لغة العامة وقراءة العامة واللغة الأحسن والأكثر، لكن الشيوع وكثرة استعمال الناس اليوم لمفردات أو أساليب صار اليوم مقياسا للابتذال حتى إن كان ذلك صحيحا فصيحا.

4. المطلب الثاني: الفصحى واللهجات من حيث الوظيفة

إن لكل من الفصحى واللهجات مقاما تستعمل فيه ووظيفة تؤديها، ولا تؤدي إحداهما ما تؤديه الأخرى، وهما بهذا يتكاملان وظيفيا، والأدلة على ذلك كثيرة جدا، منها:

الدليل الأول: أن اللغة ليست غايةً بحد ذاتها، بل هي الوسيلة الأهم للتواصل والتعبير عن المشاعر والأغراض والأذواق، وإذا كانت الفصحى مستعملة على المستوى الرسمي والأدبي، فإن اللهجات تسد مسدها على مستوى التواصل العادي اليومي. وإذا كانت الفصحى تستجيب لذوق شريحة من الناس في البيئة الكبرى، فإن اللهجات تستجيب أيضا لذوق الغالبية العظمى من الناس في بيئاتهم المحلية.

الدليل الثاني: أن القرآن الكريم وهو كتاب إلهي مقدس قد نزل بلغة مثالية موحدة، وبقراءات متعددة تشتمل على لهجات كثيرة من لهجات العرب، فكان نزوله على سبعة أحرف تحقيقا لمقصد مهم في التيسير على هذه الأمة، وهو توكيدٌ لأهمية تلك اللهجات إلى جانب الفصحى. وهذه بعض القراءات[13] لآيات من سورة الفاتحة لتتضح صورة كل من أداء الفصحى واللهجات وتكاملهما:

- {الحمدُ لِلَّهِ} فيها سبع قراءات تحمل أداء الفصحى واللهجات العامية قديما وحديثا:

الأولى قراءة الجمهور برفع الحمد وكسر لام الجر بعدها.

والثانية قراءة إبراهيم عن أبي عبلة {الحمدُ لُله} بضم الدال ولام الجر بعدها، ورويت القراءة عن الحسن، وذكر الفراء أنها لغة لبعض بني ربيعة.

والثالثة قراءة الحسن وزيد بن علي ورؤبة وغيرهم {الحمدِ لِله} بكسر الدال ولام الجر بعدها.

والرابعة قراءة هارون العتكي وسفيان بن عيينة وزيد بن علي والحسن وابن السميفع وغيرهم {الحمدَ لِله} بفتح الدال وكسر لام الجر بعدها، ونسبت هذه القراءة إلى لغة قريش والحارث بن أسامة بن لؤي.

والخامسة قراءة الحسن {الحمدَ لَله} بفتح الدال ولام الجر، وهي لغة بعض بني قيس.

والسادسة قراءة قتيبة عن الكسائي {الحمدُ لِلِهِ} بإمالة الألف.

والسابعة قراءة بعض الأعراب {الحمدُ لاهِ}.

- {الصراط}: فيها قراءات عدة تحمل أداء الفصحى ونطق اللهجات المحلية للصاد قديما وحديثا:

الأولى: {السِّراط} بالسين، وهي قراءة قنبل ورويس وابن كثير ويعقوب وابن محيصن وابن مجاهد عن قنبل والكسائي والقواس وعُبيد بن عقيل وأبي عمرو.

والثانية: {الصِّراط} بالصاد، وهي قراءة الجمهور ومنهم ابن كثير فيما رواه البزي وعبد الوهاب بن فُليح وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي وأبي جعفر وشيبة وقتادة.

والثالثة: {الزِّراط} بالزاي، وهي قراءة حمزة وأبي عمرو والكسائي في رواية ابن ذكوان عنه وعن عاصم في رواية مجالد بن سعيد عنه بالزاي الخالصة، وهي رواية الأصمعي عن أبي عمرو، وهي رواية حمزة، وهي لغة بني عذرة وبني كلب وبني القين وهم يقولون في أصدق: أزدق. وروى هذا لغةً الأصمعيُّ عن أبي عمرو.

والرابعة: بإشمام الصاد زايا، وهي قراءة حمزة من طريق خلف.

والخامسة: بإشمام الصاد السين "الصراط" وهي قراءة أبي حمدون عن حمزة.

قال ابن منظور: " لَصِقَ بِهِ يَلْصَق لُصُوقاً: وَهِيَ لُغَةُ تَمِيمٍ، وقيس تقول لَسق بالسين، وربيعة تَقُولُ لَزق"[14].

- {إيّاك} فيها قراءات كثيرة تحمل أداء الفصحى واللهجات العامية قديما وحديثا،

الأولى: "إيّاك" بكسر الهمزة وتشديد الياء وهي قراءة الجمهور.

والثانية: "أَيّاك" بفتح الهمزة وتشديد الياء، وهي قراءة الفضل الرقاشي وسفيان الثوري وعليّ. قال ابن عطية: "وهي لغة مشهورة".

والثالثة: "إِيَاك" بكسر الهمزة وتخفيف الياء؛ وهي قراءة عمرو بن فائد الإسواري وأُبيّ.

والرابعة: "هِيّاك" بإبدال الهمزة هاء وكسرها، وهي قراءة أبي السوَّار الغنوي.

والخامسة: "هَيّاك"، بإبدال الهمزة هاء وفتحها وهي لغة.

والسادسة: "إيّاِك" بإمالة الألف؛ وهي رواية عبد الله بن داود الخريبي عن أبي عمرو، وقراءة العجلي وابن حرب والأصبهاني عن خلاد عن سليم عن حمزة.

- {نعبد} فيها قراءات عدة تمثل أداء الفصحى واللهجات العربية قديما وحديثا:

الأولى: يُعبدُ، والثانية: تُعبدُ، والثالثة: نعبدْ بتسكين الدال، والرابعة: نِعبدُ، بكسر النون وهي لغة هذيل وقراءة زيد بن علي ويحيى بن وثاب وعبيد بن عمر الليثي. والخامسة: نعبدو، بإشباع الضمة واوا، وهي رواية أحمد بن صالح عن ورش. وفي هذه القراءات جوانب مهمة جدا في اللهجات، منها تسكين حركة آخر الكلمة والتخلي عن الإعراب، كما في القراءة الثالثة، ومنها كسر أحرف المضارع الذي يكاد يكون عاما في اللهجات العربية اليوم في معظم المناطق العربية، كما في القراءة الرابعة، وقد عُرف في كتب فقه اللغة بتلتلة بهراء نسبة إلى قبيلة بهراء، والحقيقة أن هذا الكسر ليس خاص بتاء المضارع وحدها ولا بقبيلة بهراء فقط، بل هو عام في أحرف المضارع كلها، وهو لغة قبائل تميم

وقيس وربيعة وهذيل وأسد وبعض قريش وغيرها، ولعل هذا الكسر هو الأصل؛ لأنه عام في اللغات العروبية (السامية) كالحبشية والعبرية والسريانية، ثم عدلت عنه إلى الفتح بعضُ القبائل العربية الحجازية وهوازن وأزد السراة وبعض هذيل. ومنها مط الكلام وإشباع الحركات في آخر الكلمة كما في القراءة الخامسة، وهي لغة الحضر، وعرفت قريش وما حولها بذلك، وعليها جاء في القرآن الكريم {وتنون بالله الظنونا} وهذا المط للكلام والإشباع تتميز به القبائل التي تبطئ في كلامها كما هو الحال في كثير من المناطق العربية.

والخلاصة أن الفصحى حملت وجها واحدا من أوجه اللغة نحوا أو صوتا أو صرفا أو غير ذلك، وحملت القراءات واللهجات الأوجه الأخرى للغة والتي لم تحملها الفصحى، فكان بهذا كل منهما يؤدي وظيفة مهمة لم تؤدها الأخرى.

والدليل الثالث: **أن اللغة أشبه بكائن حي**، وهذا الكائن هو الإنسان، وكل إنسان –سواء أكان ملكا أم أميرا أم وزيرا أم موظفا أم إنسانا عاديا–له جانبان أو أكثر في حياته، جانب رسميٌّ يستعمل فيه الفصحى أو لغة رسمية ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وربما يتكلَّفُها أحيانا في المقامات الرسمية، وآخرُ عاديٌّ يتعلق بشؤون حياته اليومية مع أسرته وفي السوق والمعاملات وغيرها، ويستعمل فيه لهجته الخاصة المتخففة من ضوابط الفصحى، وكما أن للإنسان جانبين: رسميا وعاديا، فكذلك للغة وجهان، كل منهما يحتل موقعا مركزيا ومهما لا يستعمل فيه أحدهما مكان الآخر، ولا يستغني أحدهما عن الآخر أيضا، وكلٌّ منهما يكمل الآخر. فمَن مِن الأدباء أو الملوك يخاطب أهله بلغة توازي المستوى الشعري أو الرسمي قديما أو حديثا؟ بل إن الرسول ﷺ وهو أفصح من نطق بالعربية بلا منازع قديما وحديثا قد خاطب وفود القبائل اليمينية التي لا يحتج بها بلهجاتها، وخاطب أهل بيته بلهجات محلية أيضا، فقد استأذنته عائشة رضي الله تعالى عنها في دخول عمها أفلح أخي أبي القعيس عليها، فقال لها: ائذني له فإنه عمج[15]، وكذلك لما أتي له بروثة للاستنجاء قال: "إنها رِقسٌ"[16]، وروي عنه أيضا أنه قال: "اللهم لا مانع لما أنطيت، ولا منطي لما منعت"[17]، وغير ذلك كثير.

والدليل الرابع: **أن الفصحى تحتفظ بالأصوات والكتابة المحددة فيها**، ولها أحرف تمثلها، واللهجات تحتفظ بأصوات أخرى لكثير من الحروف وطرائق الأداء المتعددة للحرف الواحد أو للظواهر الصوتية التي لا تحتفظ بها الفصحى أو تحتفظ بجزء يسير منها كالإمالة والروم والإشمام والاختلاس، فالهمزة والجيم والصاد والقاف والكاف مثلا لها في الفصحى صوت واحد ومخرج واحد، ولها أصوات عدة في اللهجات قديما وحديثا، والهمزة تنطق في الفصحى همزة بصورة واحدة، لكنها في اللهجات تبدل ألفا أو واوا أو ياء أو عينا أو هاء أو غير ذلك، والصاد أيضا لها في الفصحى صورة واحدة في الأداء لكن لها أكثر من أربع صور في اللهجات، فالفعل "لصق" تنطقه بعض اللهجات "لسق" سينا خالصة، وأخرى تنطقه "لزق" زايا خالصا، وثالثة تنطقه صادا مشمومة بالزاي أو بالسين وغير ذلك، والكاف مثلا تنطق كافا في الفصحى، وتنطق في اللهجات شينا وسينا و(چ) بين الجيم والكاف، وكل هذه الأصوات حفظتها اللهجات ولولاها لضاعت وبقيت

بصوت واحد، وكذلك الجيم، فهي مثلا تنطق بصورة واحدة في الفصحى، بينما تنطق بست صور في اللهجات، واستمرار النطق بها حفظٌ لها، فالفصحى حفظت صوتا وللهجات حفظت أصواتا، وهذا توضيحها:

- الجيم الفصيحة: تنطق جيما معطشة مشوبة بدال (إجْ) كما هو الحال في القرآن الكريم.
- الجيم المعطشة من دون أن تكون مشوبة بدال كما هو الحال في لهجة سورية ولبنان.
- الجيم القاهرية: بغير تعطيش، وقديما كانت في لغة الخزرج، وخثعم وزُبيد، وكلها قبائل يمنية الأصل، يقول كرنكوف: "إنَّ لغة الخزرج وهم يمنيو الأصل قد أثَّرت في اللهجة العربية، إذ كانوا ينطقون الجيم غير معطشة، على خلاف أهل المشرق"[18]. وهي كذلك في الأكادية يقولون: القمل= الجمل[19].
- الجيم المبدلة ياء كما في لهجة بعض المناطق في الخليج العربي، وقد قرئ بها قوله تعالى: {ولا تقربا هذه الشيرة}[20].
- الجيم المبدلة دالا، كما في بعض اللهجات المغربية، ولعل هذا الإبدال كان نتيجة لسرعة النطق التي تميل إليه القبائل البدوية ولا سيما تميم[21].
- الجيم المبدلة شينا كما روى أبو الطيب اللغوي عن الفراء[22].

كما تحتفظ اللهجات بالظواهر الصرفية التي تهملها الفصحى، فالفصحى تلتزم النقص في اسم المفعول من الفعل الأجوف نحو مَدِين ومَبيع، بينما تحمل اللهجات لغة التمام نحو مديون ومبيوع، وغير ذلك من ظواهر صرفية مبثوثة في كتب الصرف ومباحثه. وكذلك كثير من الظواهر النحوية التي تعدها الفصحى ضعيفة أو رديئة أو غير ذلك. فمثلا تلتزم الفصحى بتوحيد الفعل مع الفاعل سواء أكان مفردا أم مثنى أم جمعا نحو: صام الرجل، صام الرجلان، صام الرجال. بينما تعتمد اللهجات غالبا المطابقة بين الضمير والفاعل فتقول: صام الرجل، وصاما الرجلان، وصاموا الرجال، وقد عرفت هذه اللغة عند العلماء بلغة "أكلوني البراغيث" وعدوها ضعيفة رديئة، وهي ليست كذلك، بل كانت العربية في مراحلها المبكرة تلتزمها دائما، لكنها تخلت عنها قبيل الإسلام، وظلت بعض القبائل العربية تتحدث بها، فالفصحى إذن حفظت وجها للجملة، واللهجات حفظت أوجها أخرى لها. والشواهد أكثر من أن تحصى. والخلاصة أن اللهجات مصدر ثراء ثرّ وغنى للفصحى ولولاها لضاع كثير من الأصوات والأبنية والأساليب والتراكيب.

والدليل الخامس: أن اللهجات تلعب دور الوسيط بين الفصحى واللغات الأجنبية التي ينتج أهلها بها التقنيات والتكنولوجيا والأجهزة الإلكترونية التي تشغل جزءا مهما من حياة الإنسان اليوم، فأسماء الأجهزة الإلكترونية الحديثة مثلا من نحو موبايل وتلفون وتلفزيون وغيرها، لما دخلت العربية دخلت إلى لغة الاستعمال اليومي، حتى أخذت الفصحى وقتها:

- وأوجدت البديل، فكان الهاتف والجوّال، ثم أعادته الفصحى إلى اللهجات ليصبح أكثر استعمالا من اللفظ الأعجمي فيها.
- أو حرَّفت الدخيل ليكون وفق سننها بعد أن لاكته الألسن أشهرا وربما سنوات، وأصبح مستساغا خفيفا على اللسان، ويقبله الذوق والحس الصوتي، فمثلا عندما دخلت كلمة التلفزيون وانتشر وشاعت اقترح علي الجارم كلمة "المرناة" من "رنا" باعتبار الفعل يدل على السمع والنظر، لكن هذا البديل لم يلقَ قبولا، ولم يكن أمام مجمع اللغة إلا تعريب الكلمة نفسها وفق الأبنية العربية، فجعلها "تِلفاز"[23]. ولا شك أن الكلمات كالأشخاص والأفكار، قد تلقى القبول والاستحسان، فتذيع وتتداولها الألسن كما هو الحال في كلمتي هاتف وجوَّال، وبعضها يبقى حبيس خزائن لجان التعريب غير قادرٍ على أن يعيش ويحيى على ألسن الناس وتعاملاتهم، كما هو الحال في كلمتي (ناشر، مهتاف) البديلتين للكلمتين الدخيلتين: فاكس ومكرفون.

ويرى أستاذنا الفاضل د. لؤي خليل[24] أن اللهجات المحلية تقوم بدور مهم في حماية الفصحى، فهي أشبه بمصدة حماية لها، إذ تمنع دخول اللفظ الأعجمي إلى الفصحى كما هو، فتحافظ على أبنيتها المعهودة وثباتها. فمثلا دخلت العربيةَ في البداية كلمة "موبايل" واستعملت سنوات حتى تمكنت الفصحى من وضع البديل العربي لها "جوَّال أو خلوي أو محمول".

والدليل السادس: أن الفصحى تمثل الثقافة الرسمية والأدب الرفيع، وأن اللهجات تمثل الثقافة الشعبية والأدب الشعبي والشفاهي، وكل منهما له حسنه وجماله، فالشعر الفصيح له جمالياته التي تستقطب جمهوره وتسحر أسماعهم وتستملك أفئدتهم، والشعر النبطي كذلك، وإذا كان الأول يستقطب المتخصصين، فإن الثاني يستقطب شريحة واسعة من عامة الناس ومن المتعلمين غير المتخصصين، ولا يغني أحدهما عن الآخر، ولا يمكن أن يلغيه، وكل منهما يعبر عن موهبة وإبداع شعري وفني خاص. يقول د. محمد عبد الرحمن: "إهمال اللهجات يحرمنا من نتاج أدبي وثقافي عريق منظومه ومنثوره، عامر بالصور والأخيلة وضرب من التفنن في الاستعمال اللغوي"[25].

والدليل السابع: أن لكل مجتمع عادات وأعرافا وتقاليد خاصة به تميز من سواه، يتمسك بها ويحافظ عليها ويعدها علامة خاصة به، وله كذلك عادات وأعراف مشتركة مع مجتمعه العربي الكبير، وكذلك حال اللهجات، فكل مجتمع له لهجة محلية خاصة به يتميز بها من سواه، وفي الوقت نفسه يشترك مع أمته العربية بلغة رسمية موحدة. يقول ابن رشيق: "قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسُنُ في وقتٍ ما لا يحسنُ في آخر، ويستحسنُ في بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثرَ استعمالُه عند أهله"[26]. وإذا كان هذا في الشعر والأدب فمن باب أولى أن يكون في لغة الحياة اليومية.

والدليل الثامن: أنَّ اللهجات وما تحمله من تاريخ شفاهي تساعد كثيرا في دراسة العادات والتقاليد والحياة الاجتماعية وأنماط السلوك في المجتمعات العربية، فهي "وسيلة كشف عن المجتمع"[27]، بخلاف الفصحى التي تحمل التاريخ الرسمي للأمة ولمنظومة الحكم والأدب، ودونك التاريخ العربي، فإنه تاريخ حكومات لا تاريخ شعوب، وتاريخ أدب لا تاريخ مجتمعات، وإن حمل –عَرَضاً– نتفا يسيرة من التاريخ الشعبي.

والدليل التاسع: أن اللهجات في كل عصر تساعد على الوقوف على مراحل تطور اللغة ومعالم كل مرحلة من تاريخها، وارتباط ظواهرها بمسبباتها الزمانية والمكانية، واللهجات تمتاز بـ"احتفاظها بعناصر لغوية اندثرت من اللغة المكتوبة، وربما أهملها أصحاب المعاجم ووسموها بما ينفر منها، فقالوا: إنها رديئة أو منكرة، في حين هي حيةٌ تملك من مقومات الحياة وعناصر الخلود ما مكنها من الانتصار في صراع البقاء"[28].

والدليل العاشر: أن اللهجات يمكن استعمالها في المجال العسكري في التشفير والتعمية، ويصعب على عدوٍّ أجنبيٍّ فكها أو اختراقها، بخلاف الفصحى، فإن اختراقها أيسر بكثير على الأجنبي من اختراق العاميات[29]، فكلمة من نحو "لعوز" يصعب فهم الناس لها إن لم يكونوا من البيئة التي تستعملها.

والدليل الحادي عشر: إذا كانت الفصحى لغة للنوادر والطرائف الفصيحة، فإن اللهجات لغة لنوادر العامة وطرائفها وهي كثيرة جدا، وتشكل جزءا مهما من الحياة اليومية للمجتمعات، وتقديم كل منهما بغير لغتها الأولى يفسدها؛ ولهذا ذهب الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه وغيرهم إلى ضرورة أداء الطرفة العامية بلغتها الملحونة، وأن اللحن فيها أجمل من الفصاحة وأكثر تأثيرا وظرافة، يقول الجاحظ: " ومتى سمعت– حفظك الله– بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع أعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطغام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فإن ذلك يفسد الامتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها"[30]. يقول ابن قتيبة: "وكذلك اللحن إن مرَّ بك في حديث من النوادر، فلا يذهبنَّ عليك أنا تعمدناه، وأردنا منك أن تتعمده؛ لأن الإعراب ربما سلبَ بعضَ الحديث نفسه حسنَه، وشاطر النادرة حلاوتها"[31]. ويورد مثالا لذلك "قيل لمزيد المديني– وقد أكل طعاما كظّه: قي. فقال: ما أقي؟ أقي نقا ولحم جدي! مرتي طالق لو وجدت هذا قيا لأكلته. ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفّيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ولاستبشعها سامعُها"[32].
فكما أن للفصاحة جمالها وحسنها وأثرها فكذلك للحن كما يقول ابن عبد ربه: "وقد يستثقل الإعراب في بعض المواضع، كما يستخف

اللحن في بعضها"[33]. بل إن الجاحظ قد ذهب إلى أن اللحن على لسان الجواري أيسر وربما استملحه الرجل إذا كان سجية وغير متكلف. أظرف من الفصاحة[34].

5. المطلب الثالث: اعتراضات التكامل بين الفصحى واللهجات العامية

قد يعترض معترض فيقول: إن اللهجات قديما فصيحة بخلاف لهجاتنا المحلية اليوم، والجواب عن ذلك من وجوه:

أولها: أن مفهوم الفصاحة عام ومعمى في الوقت نفسه، وإذا كان المراد به البلاغة والتأثير فكل لهجة في بيئتها مؤثرة كتأثير الفصحى في بيئتها وحاضنتها. يقول مالك ابن أسماء الفزاري مستملحا لحن بعض نسائه:

منطقٌ صائبٌ وتلحنُ أحيانا وخير الحديث ما كان لحنا[35]

واللحن هنا يقابل الصواب في البيت، وإلى ذلك ذهب الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما[36]، يقول ابن منظور تعقيبا على البيت السابق: "وتلحن أحيانا: أنها تُخطئ في الإعراب، وذلك أنه يستملح من الجواري، ذلك إذا كان خفيفا، ويستثقل منهنَّ لزوم حاقِّ الإعراب"[37].

ثانيها: أن اللهجات المحلية اليوم في معظمها متوارثة عن اللهجات القديمة، وليست من ابتكار أبناء هذا العصر، كما سبق أن أشرت إلى ذلك في المقدمة، ومحالٌ أن يبتكر كل جيل لهجة خاصة به، فاللهجات واللغات تكون نتيجة تطور لغوي على امتدادٍ زمني طويل، وكل إنسان يتكلم وفق ما توارثه وتعارف عليه وألفه أبناء مجتمعه دون أن يبذل عناء لذلك، وإذا ما تكلم بكلام غير مألوف أو معروف عندهم فربما وقع في محل السخرية والاستهزاء أو الاستنكار، إذ يفشل خطابه، ولا تصل فكرته، وربما يُساء فهمه والظن به، وربما يتهم بالتفيقه والفذلكة وغير ذلك... يقول ابن خلدون عن نطق الناس للقاف (ق) بين القاف والكاف والتي عمت في كثير اللهجات العربية قديما وحديثا نحو أقول، تقول...: "وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل، بل هي متوارثةٌ فيهم متعاقبةٌ، ويظهر ذلك أنها لغة مضر الأولين، ولعلها لغة النبي بعينها"[38]. وتوارث اللغة لا يقتصر على الفصحى وحدها كما ذهب إلى ذلك ابن جني بقوله: "وليس أحدٌ من العرب الفصحاء إلا يقول: إنه يحكي كلام أبيه وسلفه، ويتوارثونه آخر عن أول، وتابع عن متَّبَع"[39]. بل عام يشمل اللهجات والفصحى، والتصور الذي يقع في أي منهما تتأثر به الأخرى ما دامت العلاقة بينهما علاقة خصوص وعموم.

ثالثها: أن المطلع على كتب النحاة واللغويين يجد أوصافا كثيرة للغات العرب التي احتجوا بها، كاللغة القليلة والنادرة، والضعيفة والشاذة والرديئة والقبيحة والمتروكة والمرذولة والخطأ والغلط، وغير ذلك، هذه أوصاف للغات في عصر الاحتجاج، فضلا عن أن كثيرا من اللهجات

القديمة لا يحتج بها، كلهجات اليمن والعراق والشام، وحواضر الحجاز وقبائل أطراف الجزيرة العربية، ومع ذلك كله خاطب النبي ﷺ القبائل اليمينية خاصة بلهجاتها التي لا يحتج بها، ولو خاطبهم بالفصحى المثالية لما نجح التواصل تماما كنجاحه عند مخاطبتهم بلهجاتهم. ومنها نستنبط استحالة جمع الناس على لغة واحدة موحدة في المستوى الرسمي والأدبي واليومي العادي، ولكن يمكن تقريب المسافات بينها بطول السماع والممارسة.

رابعها: أن اللهجات لهجات ما دامت لا تتوافق مع اللغة الموحدة، بصرف النظر عن الزمن الذي قيلت فيه، فالزمن ليس مقياسا أو معيارا يُحكم به على اللغة أو اللهجة، بل الجودة والرداء، وهما يتأتيان من الخفة وقبول الذوق والقدرة على التواصل والتفاهم بها بين أبناء المجتمع، والتعبير عن المشاعر والأعراض والتجارب وغير ذلك. يقول د. محمد عيد: "فاللغة أو الهجة لا تقاس صلاحيتها بحسب التقدم أو التأخر في الزمن، والرقي أو التأخر في الحضارة، بل بحسب قدرتها على أداء دورها الاجتماعي بين من ينطقونها، إذ تستجيب للتعبير عن تجاربهم ومظاهر حياتهم وتحقيق الاتصال والتفاهم بينهم"[40].

خامسها: أن اللغة كالكائن الحي –كما سبق أن أشرت– في حركة وتطور نتيجة لطبيعتها الاجتماعية، والظواهر الاجتماعية في تطور مستمر لا يمكن لأحد إيقافه أو إلزامه بقيود ومعايير محددة مهما حاول؛ لأن المعايير محددة، والتطورات مفتوحة ولا نهاية لها، وهذا التطور لا يوصف بالأحسن ولا بالأسوأ، ولا بالصحة والفساد، فالفصحى في القرن الأول الهجري ليست أصح منها في القرن الثاني أو الخامس أو الحديث، وكذلك لا توصف لهجات العصر الجاهلي أو الإسلامي بالفصاحة والتفضيل والتمييز وتحرم منه اللهجات الحديثة المنحدرة منها التي يتحدث بها الناس في مناطق اللهجات العربية القديمة أو في العالم العربي عموما[41].

سادسها: أن اللهجات قديما –ولهجاتنا موروثة عنها– قد أدت دورا مهما على مستويات عدة، منها:

1. الديني: فقد كان القرآن الكريم بلغة موحدة جامعة، ولكن العرب لم تستطع أن تؤديه بها؛ لهذا خفف عليهم بجواز أدائه بقراءات متعددة تتوافق ولهجاتهم فكان نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف مقصدًا من مقاصد التيسير على هذه الأمة، فلا تضطرهم إلى تكلف ما لا يستطيعون أو ما لا يطيقون، وقد جاء في أحاديث كثيرة أن النبي طلب من ربه أن يخفف عن أمته حتى أوصلها إلى سبعة أحرف[42]، وهذه الأحرف عند كثير من العلماء على سبيل التكثير لا الحصر[43]. إذاً فاللهجات كانت عاملا مساعدا للفصحى في تلاوة الناس القرآن وتعرف أحكامه. ولا شك أن في هذا تسهيلا وتيسيرا عليهم، ومن ثَمَّ فهي مكملة للفصحى في إتاحة المجال لفئات كثيرة أن تؤدي القرآن بما يسرته لهم وتعرفهم أحكامه وقصصه ومواعظه ولولاها لتعذر عليهم أو صعُب. وإذا كانت اللهجات في أداء القرآن

مكملة ومساعدة وميسرة فلست أشك أنها كذلك في باقي المجالات، وأن إهمال اللهجات والتمسك بالفصحى وحيدة وبمعايير النحاة وأقيستهم المحددة ربما كان سببا للتجرُّؤ على الطعن في القراءات وتخطئتها وردها.

2. نشر الدعوة: فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب وفد كل قبيلة بلهجته، حتى إن عليا رضي الله عنه قال: يا رسول الله، تكلمهم بما لا نفهم ونحن أبناء أب واحد. وكذلك الحال في كثير من المناطق العربية اليوم ولا سيما كبار السنّ، ربما لا تصل الموعظة أو الفكرة إليهم تماما –كما يراد أن تصل– إذا ما قدمت باللغة الفصحى، بخلاف إذا ما قُدِّمت باللغة المحلية، واللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار والمشاعر والحوائج، وليست هدفا بحد ذاته، كما سبق أن ذكرت.

3. الأدبي: فقد كانت العرب تنشد الشعر على سجيتها، يقول ابن هشام: "كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض، وكلٌّ يتكلم على مقتضى سجيته التي فُطِر عليها، ومن هنا كثرت الروايات في بعض الأبيات"[44]. وإذا كان هذا في إنشاد الشعر لبعضهم فمن المؤكد أنهم ينشدونه بلهجاتهم في قبائلهم، وأنهم ينظمونه بلهجاتهم في قبائلهم أيضاً. يقول د. صبحي الصالح: "من المؤكد أن عامة العرب لم يكونوا إذا عادوا إلى أقاليمهم يتحدثون بتلك اللغة المثالية الموحدة، وإنما يعبرون بلهجاتهم الخاصة، وتظهر على تعابيرهم صفاتُ لهجاتهم وخصائصُ ألحانهم"[45].

6. المطلب الرابع: هل تشكل اللهجات المحلية خطورة على الفصحى؟

لا أعتقد أن اللهجات تشكل أي خطورة على الفصحى ما دامت باقية في مجالها اليومي العادي وفي التواصل الشفوي اليومي بين أبناء المجتمعات المحلية، ولا تقتحم مقامات الفصحى، وقد ظلت اللهجات إلى جانب الفصحى تستعمل في بيئاتها المحلية منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، ولم تشكل خطرا عليها رغم الأصوات التي تقول بخطرها وتهديدها للفصحى منذ منتصف القرن الأول الهجري إلى يومنا هذا، وذلك لجملة من الأسباب، منها:

1. وجود المعيار الثابت المتمثل بالقرآن الكريم ثم الأحاديث الشريفة ثم أشعار العصور السابقة ومعظمها فصيحة، وإذا كان الأعجمي يتمكن من التحدث بلغة سليمة لتلاوته القرآن وحده، فإن ذلك أيسر على العربي إذا عزم وأراد.
2. أن الازدواجية اللغوية في العربية ازدواجية ثراء لا ازدواجية ضعف، فكل لهجة من لهجات المناطق العربية اليومية تمد الفصحى بأصوات وأساليب وصور وأخيلة كثيرة، وتؤدي وظيفتها في التواصل والتعبير في مقاماتها الخاصة بها التي تنزل الفصحى إلى مستواها فتبتذل.

3. أن للهجات الحالية أصولها في لهجات القبائل العربية القديمة، وإن كانت هناك بعض المستجدات بفعل العامل الزمني وما تعرضت له البلاد العربية من غزو عسكري وفكري.
4. أن هذه الازدواجية ليست وليدة اليوم، وليست خاصة بالعربية وحدها دون غيرها من اللغات الأخرى، بل هي عامة في جميع لغات الأرض. وتزداد مع الامتداد المكاني والزماني وعدد المتكلمين بها، ولا يمكن أن تخلو منها لغة إلا إذا كانت لغية لمجتمع واحد فقط.

لكن اللهجات يمكن أن تشكل خطرا على الفصحى وتهديدا لها إذا كتبت ودوِّنت وعوملت معاملة الفصحى في التدوين والتعليم والخطاب الرسمي والأدب المكتوب، ومكمن الخطورة فيها أن الرسمي قد يُتخذ حجة وذريعة لجعل اللهجات تحل محل الفصحى، وأن المكتوب ينقل إلى أجيال كثيرة لاحقة، مع أن اللهجات تفقد كثيرا من خصائصها وقدرتها التعبيرية بالكتابة، كما تفقد أهميتها وتأثيرها وتصبح طلاسم إذا ما انتقلت إلى بيئة أخرى، وإذا كانت الفصحى الموحدة قد فقدت كثيرا من سماتها وخصائصها في الكتابة كالنبر والتنغيم والإمالة والترقيق والتفخيم ... وصارت غامضة كلما تقادم بها العهدُ، فما ظنُّك بلهجة محلية تبدو جماليتها في شفاهيتها أكثر منها في كتابتها، بل تبدو مشوهة رديئة كل الرداءة إذا ما كُتبت.

6. خاتمة:

إنَّ اللغة تختلف من شخص إلى آخر، فهي عند المتكلم وسيلة حياة في المجتمع وميدان حركة ومعايير تراعى، وعند الباحث ظواهر تلاحظ وموضوع دراسة ووسيلة كشف عن المجتمع، المتكلم يشغل نفسه بواسطتها، والباحث يشغل نفسه بها[46].

وإن تمسك العلماء قديما بالفصحى وحيدة لا يعدو أن يكون ضربا من الأحلام التي صعّبت على العرب والأجانب تعلمها، وفتحت السبل أمام الطعن بالقراءات المتواترة المتعبد بها وبلغات العرب ووصفها بالرداءة والقبح والشذوذ مع أنها لغات قبائل عربية أصيلة معروفة بفصاحتها ونقاء لغتها.

7. نتائج البحث:

1. أن العلاقة بين الفصحى واللهجات علاقة خصوص وعموم، وما دامت كذلك فهي علاقة تكاملية لا تصادمية.
2. أن التكامل بين الفصحى واللهجات بدا واضحا وجليا على المستوى الوظيفي في تأدية كل منهما وظائف مهمة لا يؤديها الآخر.

3. يبدو التكامل بين الفصحى واللهجات في تمثيل أحدهما الثقافة والأدب والخطاب الرسمي، وتمثيل الآخر للجانب الشعبي وشؤون الحياة اليومية.
4. أن حفظ القرآن الكريم للعربية لا يقتصر على اللغة المثالية الموحدة، بل حفظ لهجاتها أيضا من خلال قراءاته المتعددة المتواترة والشاذة.
5. أن الجانب الفصيح واللهجي ضروريان للغة لكونه صورة عن الكائن الحي الذي له جانبان أيضا: رسمي وعادي.
6. أن اللهجات مصدر ثراء وغنى للفصحى في الأصوات والأبنية والتراكيب والدلالة وغير ذلك.
7. أن اللهجات وسيط بين الفصحى واللغات الأجنبية عند نقل أسماء المخترعات الحديثة، تسهم في حماية الفصحى وتفسح لها المجال للتعريب أو إيجاد البديل الفصيح.
8. أن اللهجات الحديثة متوارثة في معظمها ولا تفضيل بين الفصحى واللهجات قديما على أساس التقدم في الزمن أو التأخر بل التواصل والتعبير عن المراد وقبول الذوق.
9. أنه ليس ثمة تصادم بين اللهجات والفصحى ما دام كلٌّ منهما في ميدانه ولا يتجاوزه إلى ميدان الآخر، وأن لا خوف على الفصحى من اللهجات لوجود ثوابت لا يمكن تغييرها.
10. أن الازدواجية اللغوية ليست خاصة بعصرنا هذا ولا بلغتنا العربية، بل هي عامة في كل الأزمنة وفي كل اللغات البشرية ما دامت لها مجتمعات متعددة تتحدث بها.

8. المصادر والمراجع

1. الإبدال: لأبي الطيب اللغوي (351هـ)، تحقيق عز الدين التنوخي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط1، 1960.
2. الإحكام في أصول الأحكام: ابن حزم الأندلسي (456 هـ)، تحقيق أحمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، د.ت.
3. الأضداد: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1987.
4. أمالي الزجاجي: أبو القاسم الزجاجي (337 هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط2، 1987.
5. البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي (745 هـ)، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، دمشق، ط1، 1420 هـ.
6. البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ (255 هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ.
7. التطور اللغوي التاريخي: إبراهيم السامرائي، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثانية، 1981م.
8. الخصائص: عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، القاهرة، د.ت.
9. دراسات في فقه اللغة: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة عشرة، 1997م.

10. سنن الترمذي: أبو عيسى الترمذي (279هـ)، تحقيق أحمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1975م.
11. سنن النسائي (المجتبى أو السنن الصغرى): أبو عبد الرحمن النسائي (303 هـ)، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، 1986م.
12. العقد الفريد: ابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404هـ.
13. العمدة في محاسن الشعر وآدابه: الحسن بن رشيق (463 هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981.
14. عيون الأخبار: عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ.
15. العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (170هـ)، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1985.
16. فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي (764 هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1973.
17. كتاب الغريبين في القرآن والحديث: أبو عبيد الهروي (401 هـ)، تحقيق أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة 1، 1999م.
18. لحن العامة والتطور اللغوي: د. رمضان عبد التواب، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط2، 1967.
19. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور (711 هـ)، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
20. اللغة بين المعيارية والوصفية: د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 2001م.
21. مباحث في علوم القرآن الكريم: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط20، 1997.
22. المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها: عثمان بن جني (392 هـ)، تحقيق علي النجدي ناصيف وآخرين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1969.
23. المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة، د.ت.
24. المستوى اللغوي للفصحى واللهجات: د. محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1981.
25. معالم اللهجات العربية: د. عبد الحميد محمد أبو سكين، جامعة القاهرة، د.ط.ت.
26. معجم الألفاظ العامية: عبد المنعم سيد عبد العال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1972.
27. معجم القراءات: عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 2002.
28. مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق إبراهيم شبوح، وإحسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الأولى، 2006م.

أبحاث المجلات:

1. اختلاف اللهجات على المستوى التركيبي كتاب توضيح المقاصد للمرادي أنموذجا: د. محمد عبد الرحمن محمد، مجلة جامعة جازان، فرع العلوم الإنسانية، العدد 2، المجلد 2، رجب 1434هـ، مايو 2013م.
2. تطور صوت الجيم في اللغة العربية وأثره في تشكيل بنية الكلمة: يحي عباينة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الرابع عشر، العدد الخامس، 1999م.

الهوامش والإحالات

---

[1] مباحث في علوم القرآن الكريم ص114، ودراسات في فقه اللغة العربية ص50-51.

[2] التطور اللغوي التاريخي ص58.

[3] أمالي الزجاجي ص20.

4 مقدمة ابن خلدون 500/2.

5 الإحكام في أصول الأحكام 1 /31-32.

6 الخصائص 5/2.

7 لسان العرب 8/1.

8 مقدمة ابن خلدون 500/2.

9 مقدمة ابن خلدون 499/2.

10 المزهر 256/1-257.

11 فوات الوفيات 233/3.

12 معالم اللهجات ص74.

13 انظر: البحر المحيط 33/1-52، ومعجم القراءات 3/1-24.

14 لسان العرب (لصق).

15 لسان العرب (عمم).

16 كتاب الغريبين في القرآن والحديث 3/ 773، وتطور صوت الجيم ص314.

17 كتاب الغريبين في القرآن والحديث 1857/6.

18 معجم الألفاظ العامية ص22.

19 العين 96/2 (عذر) و25/4 (دهل).

20 المحتسب 73/1-74.

21 معجم الألفاظ العامية ص23.

22 الإبدال لأبي الطيب اللغوي ص28 و226.

23 المستوى اللغوي ص24.

24 من خلال جلسات حوار متعددة وفي محاضرة ألقاها في الملتقى الثقافي العربي.

25 اختلاف اللهجات على المستوى التركيبي ص75.

26 العمدة 93/1.

27 اللغة بين المعيارية والوصفية ص13.

28 اختلاف اللهجات على المستوى التركيبي ص75.

29 اختلاف اللهجات على المستوى التركيبي ص75.

30 البيان والتبيين 136/1.

31 عيون الأخبار 46/1.

32 عيون الأخبار 46/1.

33 العقد الفريد 309/2.

34 البيان والتبيين 137/1.

35 البيان والتبيين 137/1.

36 لحن العامة والتطور اللغوي ص15، وانظر: البيان والتبيين 137/1، وانظر: عيون الأخبار 177/2، والأضداد ص241.

37 لسان العرب (لحن).

38 مقدمة ابن خلدون 496/2.

39 الخصائص 31/2.

40 المستوى اللغوي ص29.

41 المستوى اللغوي ص29.

42 ينظر: سنن الترمذي 194/5 برقم (2944)، وسنن النسائي 152/2 برقم (939).

43 ينظر: مباحث في علوم القرآن الكريم ص103-104.

44 المزهر 261/1.

45 مباحث في علوم القرآن الكريم ص114، ودراسات في فقه اللغة العربية ص50-51.

46 اللغة بين المعيارية والوصفية ص13.